الرجل العاري

أبو بكر العيّادي

ما الذي يبقيه في الغربة؟

الآن وقد انكشف الستر وهتك الحجاب وكشّرت له الغربة عن وجهها البشع، وجه التيه والضياع والعزلة الخاوية، وبدت خيبته كفضيحة تتصدر الجرائد، بات يسائل نفسه عما يشّده إلى مدينة لم يجن منها غير المرارة. مدينة مثل غانية تدوس على عشاقها في غير رحمة، عطوف إذا كان الجيب جوّادا لا يبخل لحظة، نفور إذا نضب المعين وعزّ العطاء، مثل أنيسة، لا يشغل بالها غير الجلّ والبرقع، وأنيسة تناءت وغابت في زحام سعت إليه بقدميها، كما سعى هو إلى هذه المدينة المتبرجة، التي ظنّ عندما وطئت أديمها رجلاه أنه جاء إلى الجنة الموعودة، ليتمرغ في نعيمها، ويعبئ من ضوعتها رئتيه، ويملأ من حسنها عينيه، وراح ينقّل خطوه في حدائقها وساحاتها وشوارعها ومعالمها، يتنشق وضاءة لا يني يستكشف فتنتها يوما وراء يوم، إلى أن رام القرب منها كما يقول العرب اليوم،فإذا هي أشبه بغادة حرون تشعل ولا تعطي، تضرم في النفس أضرى نيرانها ولا تهب إلا الغبن، وإذا هو، مثل آلاف قبله، لا يجني من المشهد غير فرجة ممزوجة بالعجز والإحباط.

وحيدا لا يزور ولا يزار، وهوو في سنّ شرعت ساعته في العدّ العكسي، تنذر بالانحدار إلى الهاوية التي ليس منها مهرب. فمن له في غد لو اعتكرت صحته أو أقعده مرض، وليس له في بلاد الغربة لا تأمين صحي ولا معاش، وإذا هو يتعجب كيف يشغل نفسه بأسئلة وجودية لا يدركها الحس ولا يتبينها الوعي ولم يجترح قبل اليوم سؤالا حيويا كهذا، كأنه يعيش أبدا .

وعاد يسأل نفسه، وقد غدت صحائفه غامضة يجللها الضباب من كل جانب، وكل يوم يهلّ يأتيه بهمّ مستجد، عن سبب بقائه بمدينة لا يأمن فيها حاضره ولا غده، وإذا هو يعي، والألم ينغل في صدره، أن موانع العودة أشد إيلاما من دوافع البقاء .